الحجّ.. أنسَنة العَولمة

الشيخ حسين كوراني

هنا مكّة – مركزُ الكرةِ الأرضيّة وقبلتُها. من هنا بدأ دَحْو الأرض، من تحت الكعبة. هنا البيت المعمور الظاهر المُلكيّ، بإزاءِ البيتِ المعمورِ المعنى والملكوتيّ. مكّة منبر الأنبياء ليُثيروا لبني آدم دفائنَ العقول. من مكّة كان النداءُ الإبراهيميّ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ..﴾. وفي مكّة استنزلَ سيّدُ الأنبياء القرآنَ الكريم، الهُدى الإلهي الأتمّ والخالد للعالَمين. ومن جوار الكعبة يُعلن قائم آل محمّد، إقامةَ الحكومة العالميّة الواحدة.

حقائق محوريّة: مع مكّة والحجّ إليها تُتاح للحجيج إمكانية التعرّف على الحقائق المحوريّة التالية:

١– أنّ أبانا نبيّ، بخلاف كلّ مَن يريد أن يُصوِّرَه قرداً! أو حيواناً، أوأضلَّ سبيلا.

٢– وعلى مَقرُبةٍ من مكّة، وفي مدينة «جَدَّة» التي هي مهبط الحجيج عادةً، يتعرّف الناس على أُمّهم «حوّاء» «المُطَهَّرة من الأرجاس» كما عن أهل البيت عليهم السلام.

٣– وأنّ العلاقة بين آدم ومكّة محمديّة بامتياز، تُذكِّر بمرحلة ما قبل الخلق حين فتح النبيُّ آدم. على نبيّنا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام. عينيه فرآى أنواراً مُحدِقةً بالعرش. في هذا السياق إذاً كانت مكيّة آدم. إنّه سياق فرادة «الإنسان الأوّل» صلّى الله عليه وآله الذي جعل مسار الإنسانيّة ومصيرَها مرتبطاً بمكّة.

٤– وأنّ العلاقة بين نبيّ الله إبراهيم ومكّة، كذلك محمديّة بامتياز، فالرحلة ما بين «أور» ومكّة محمديّة.

٥– ويُتاح للحجيج اكتشافُ العلاقة بين البيت وأهل البيت، وهي من السهل المُمتنِع، فبيتُ الناس لكلّ الناس، إلا أنّ أهلَه هم أولى الناس بالإنسانيّة: الإنسانُ الأول وسائر تجلّيات الحقيقة المحمديّة. ولا يكاد ينقضي العَجب من مرض الفصل المُستحكِم بين البيت وأهل البيت.

نعم للأنسنة، ولا للتشيئة: من كلّ فجٍّ عميقٍ يتوافد ممثّلو الشعوب والأُمم إلى مواقيتَ كانت مُنطلقَ الأنبياء إلى حجّ البيت، ويُردِّدون تلبيةً هي حاصلُ تلبيات الأنبياء.

تبدأُ التلبيةُ مع لُبس ثوبَي الإحرام إيذاناً بالتجرّد من كلّ التعلّقات الطارئة، وإنْ كانت ضروريّة إلا أنّها متلازمة مع حاجات الإنسانيّة، وليست من جوهر الإنسانيّة.

التفريق بين الإنسان والشيء نقطةُ الإنطلاق إلى حجٍّ إنسانيّ وعالميّ. عولمةُ الحجّ للأُمم إنسانيّة. إنسانيّة الحجّ عالميّة، والمُختبَر الكعبة:

قال عليٌّ سِرُّ الإنسان الأوّل وسائر النبيّين: «ألا تَرونَ أنّ الله سبحانه اختبرَ الأوّلينَ من لَدُن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تُبصِر ولا تسمع، فجَعَلها بيتَه الحرام الذي جعلَه للناس قياماً، ثمّ وضعَه بأَوْعَرِ بقاع الأرض حجراً، وأَقَلِّ نتائق الأرض مَدَراً، وأضيقِ بطون الأودية قُطراً، بين جبالٍ خَشِنَة، ورمالٍ دَمِثَة، وعيونٍ وَشِلَة، وقُرىً منقطِعة، لا يزكو بها خُفٌّ، ولا حافرٌ ولا ظِلفٌ، ثمّ أمرَ آدمَ وولَدَه أن يثنوا أعطافهم نحوَه، فصارَ مَثابةً لِمُنتَجَعِ أسفارِهم، وغايةً لمُلقَى رحالهم. تهوي إليه ثمارُ الأفئدةِ من مَفاوِزِ قِفارٍ سحيقة، ومهاوي فِجاجٍ عميقة، وجزائرِ بحارٍ

مُنقطِعة، حتّى يهزُّوا مناكبهم ذُلّلاً يُهلِّلون لله حوله. ويَرمُلون على أقدامِهم شُعثاً غُبراً له، قد نبذوا السرابيلَ وراءَ ظهورِهم، وشوَّهوا بإعفاءِ الشُعور محاسنَ خَلْقِهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مُبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعلَه الله سبباً لِرَحْمَتِه، وَوُصْلَةً إلى جنَّتِه. " . . " يختبرُ عبادَه بأنواعِ الشَدائد، ويتعبَّدُهم بأنواعِ المُجاهد، ويبتَليهم بضُروب المكاره، إخراجاً للتكبُّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلُّل في نفوسهم، وَلِيَجْعَلَ ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضلِه، وأسباباً ذُلُلاً لِعفوِه، فاللهَ اللهَ في عاجلِ البَغي، وآجلِ وَخامةِ الظُلْم، وسوءِ عاقبةِ الكِبْر " . . " حرسَ اللهُ عبادَه المؤمنين بالصَلواتِ والزَكوات، ومجاهدةِ الصيامِ في الأيّام المفروضات تسكيناً لأطرافِهم، وتخشيعاً لأبصارِهم، وتذليلاً لنفوسِهم، وتخفيضاً لقلوبِهم، وإذهاباً للخُيَلاءِ عنهم، لِما في ذلك من تعفيرِ عِتاقِ الوجوه بالتراب تواضعاً، والْتِصاقِ كرائمِ الجَوارحِ بالأرضِ تَصاغُراً، ولُحوقِ البُطونِ بالمُتونِ من الصيام تَذَلُلاً، مع ما في الزكاة من صرفِ ثمراتِ الأرض وغيرِ ذلك إلى أهلِ المَسكنة والفَقر. انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قَمْعِ نواجمِ الفَخر، وقَدْعِ [مَنْع] طَوالِعِ الكِبْر».

يريد الله من الحجّ أن يسلك العالَمون صراطَ الأنبياء. قال سرّ النبيِّين عليٌّ عليه السلام:

«فَلو رَخَّصَ اللهُ في الكِبْرِ لأحدٍ من عبادِه لَرَخَّصَ فيه لخاصّة أنبيائِه وأوليائِه، ولكنّه سبحانَه كَرِّهَ إليهم التكابرَ، ورَضِيَ لهم التواضع. فَأَلصقوا بالأرضِ خدودَهم، وعَفَّروا في التراب وجوهَهم، وخَفَضوا أجنحتَهم للمؤمنين، وكانوا أقواماً مُستَضعَفين " . . " ولقد دخلَ موسى بنُ عمرانَ ومعه أخوه هارونُ عليهما السلام على فرعون، وعليهما مَدارِعُ الصُوف، وبأيديهما العِصِيُّ، فَشَرَطا له. إنْ أَسْلَم. بقاءَ مُلكِه ودوامَ عِزِّه فقال: "ألا تَعجَبون من هذين يَشْرِطان لي دوامَ العِزِّ وبقاءَ المُلك، وهما بما تَرونَ من حالِ الفقرِ والذُلّ، فَهَلاَّ أُلقِيَ عليهما أَساوِرَةٌ من ذَهَب؟" إعظاماً للذَّهَبِ وَجَمْعِه، واحتقاراً للصُوفِ ولُبْسِه. وَلَو أرادَ اللهُ سبحانَه بأنبيائه حيثُ بعثَهم أن يفتحَ لهم كنوزَ الذُّهبان، ومعادنَ العِقْيان، ومَغارسَ الجِنان، وأن يحشرَ معهم طيورَ السماء، ووُحوشَ الأرضِ لَفَعَل، ولو فعلَ لَسَقَطَ البلاء، وبَطَلَ الجزاء، واضْمَحَلَّت الأنباء، ولَما وَجَبَ للقابلين أجورُ المُبتلين، ولا استحقَّ المؤمنون ثوابَ المُحسنين، ولا لَزِمَت الأسماءُ مَعانِيَها " . . " ولكنّ الله سبحانَه أرادَ أن يكونَ الاتّباعُ لِرُسُلِه، والتَصديقُ بكُتُبه، والخشوعُ لوَجْهِه، والإستكانةُ لأمرِه، والإستسلامُ لطاعتِه، أموراً له خاصّة، لا تشوبُها من غيرها شائبة. وكلّما كانت البَلوى والاختبارُ أعظَم، كانت المَثوبةُ والجزاءُ أَجْزَل. . ».

لِتَلْزَمَ الأسماءُ مَعانيَها: لا سبيلَ إلى حفظِ الإنسانيّة إلا إذا لَزِمت الأسماءُ معانيَها. «أَرِنا الأمورَ كما هي». فلا أَنسنةَ للشيء، ولاتشيئةَ للإنسان. ولا تُبنى القناعات على حُمَّى الأهواء والمُنى. ولا يُسمَحُ للإعلام والإعلان بأنْ يستلبا العقل. لا بدّ من اتّباعِ الأحسن: ﴿ . يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . . ﴾ بحثاً عن الحقيقة من دون أن تصرعَ البهارجُ العقول، فكلُّ بَهرجةٍ تَحجُب، هي تدليسٌ يتوجَّبُ الحذرُ منه لتبقى للإنسان واقعيّة التواضع، ولا يقع في زُخرف الكِبْر وتدليسِه والتّشْيِئَة. بثوبَي الإحرام المُذكّرين بالمَبدأ والمعاد تبدأ رحلةُ عولمة الإنسانيّة عبر مناسك الحجّ، بدءاً من دخول الحرم، مروراً بمَنسك المعرفة والاعترافِ في عَرَفة، تحريراً للعقل وصياغةً للقلب، تمهيداً لصيانةِ المشاعر في المَشعرِ الحرام في سياقِ المعرفة التي صِيغت في عَرَفة، وهي معرفةٌ لا تنفصل عن الموضوعيّة التي يشير لها الاعتراف.

مروراً كذلك بوادي مُحَسِّر التي يجتازها الحاجُّ بعدَ المَشعر الحرام، حاملاً جمارَ الرَمي وحَصياتِه، تُذكِّرُه بحجارةٍ من سِجِّيل، ماضياً قُدُماً في رحلة التجرّد من كلّ الشوائب بحثاً عن لقاءِ الله مُخَضَّباً بدمِ الجهاد والشهادة.